الفصل الأول

عصر محمد على

بعد جلاء الحملة الفرنسية عن مصر، تنازع على حكمها ثلاث قوى هي الدولة العثمانية و الإنجليز والمماليك، وكانت هذه القوى هي التي كانت قد اتحدت من قبل ضد الحملة الفرنسية، ثم ما لبث كل منها إلى التطلع للانفراد بالحكم.

فقد تطلع السلطان العثماني إلى إعادة حكمه ونفوذه على مصر ولذلك قرر محاربة المماليك والقضاء عليهم، أما انجلترا فأرادت أن تبسط نفوذها على وادي النيل وتحتل بعض المواقع على شواطئ البحرين المتوسط والأحمر، ومن جهة ثالثة طمع المماليك في إستعادة حكمهم للبلاد وحاولوا الاستعانة بالإنجليز ضد الدولة العثمانية، وبطبيعة الحال رحب الإنجليز بذلك لتحقيق أطماعهم في مصر.

مع تطاحن وتنازع هذه القوى الثلاث، ظهرت قوة جديدة على ساحة الحراك السياسي في مصر، وهي قوة الشعب المصري ممثلة في زعاماته التي تبلورت منذ الحملة الفرنسية واتسعت خبراتها بالدخول في تجارب الحكم والسياسة، وبرزت شخصيات مهمة أمثال السيد عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوي وغيرهما.

على أي حال واجهت البلاد فترة عصيبة من الفوضى والاضطرابات، وتعدد الولاة في فترة وجيزة، وخلال هذه الفترة ظهرت شخصية محمد علي.

ولد محمد علي سنة 1769م في مدينة قولة باليونان والتي كانت ولاية عثمانية،واسمه كاملًا محمد علي باشا المسعود ابن إبراهيم آغا القوللي نسبةً إلى محل ميلاده، وقد عمل في بداية حياته بتجارة الدخان، واكتسب خبرة في الشئون المالية فضلا عن خبرته العسكرية، وانضم إلى الجيش العثماني الذي جاء مع الأسطول العثماني إلى مصر للاشتراك في إجلاء الفرنسيين وكان قائدًا للفرقة الألبانية.

• **ولاة مصر منذ جلاء الحملة الفرنسية 1801م حتى تولية محمد علي 1805م:**

1. خسرو باشا: بعد جلاء الحملة الفرنسية، عينت الدولة العثمانية محمد خسرو باشا واليًا على مصر، وقد طلب خسرو باشا من طاهر باشا قائد فرقة الأرناؤود ومحمد علي قائد فرقة الألبان التوجه إلى الصعيد لمحاربة المماليك، إلَّا أن محمد علي حرض طاهر باشا بأن يطالب خسرو بدفع رواتب الجند المتأخرة، وكان محمد علي يعلم أن خسرو سيعجز عن توفير رواتب الجند، وهو ماحدث، فثار الجند على خسرو باشا وهاجموا القلعة فهرب خسرو إلى دمياط ثم قبض عليه وسجن في القلعة.
2. طاهر باشا: بعد توليه، عجز هو أيضًا عن دفع رواتب الجند فثاروا عليه وقتلوه.
3. أحمد باشا: لم يلبث في السلطة الَّا يومًا واحدًا، حيث تحالف ضده محمد علي والمماليك، فغادر القاهرة، وطرد المماليك القوات العثمانية من القاهرة وأصبح منصب الوالي خاليًا وأصبحت السلطة الفعلية في يد أحد المماليك وهو عثمان بك البرديسي.

4. علي الجزايرلي باشا: عَيّنَ السلطان علي الجزايرلي واليًا على مصر، ولكن المماليك قتلوه قبل أن يتولى السلطة في يناير 1804م، مما أدى إلى انتهاء مظهر السيادة العثمانية، ولم تعد هناك قوى متنافسة على الحكم سوى محمد علي والمماليك الذين زادت سلطتهم بعد عودة محمد بك الألفي المملوكي من إنجلترا وضمن تأييدهم له. وقد بدأ محمد علي يخاف من المماليك بعد عودة الألفي، إلَّا أن عداء البرديسي للألفي والصراع بين فرق المماليك وفرت على محمد علي الدخول في الصراع معهم وأكتفى باشعال نار العداوة والفتنة بينهم، حيث قرر البرديسي اعتقال الألفي الذي هرب إلى الصعيد.

في ظل هذه الصراعات، وفي فترة حكم البرديسي هذه، تعرضت مصر إلى أزمة اقتصادية طاحنة، إذ انخفض فيضان النيل وقلت الأقوات ففرض البرديسي الضرائب على الناس، مما دفع الشعب إلى الثورة على البرديسي ومماليكه.

يبدو أن محمد علي قد خشي من أن تصيب الثورة جنوده، كما أنه أدرك أن هذه ربما تكون فرصته الأخيرة للتقرب بشخصه من المصريين وزعامتهم، وأن يظهر في دور العادل المتواضع.

على أي حال قامت ثورة الشعب المصري في مارس 1804م، ونزل محمد علي وجنوده إلى الشارع واختلط بالأهالي الساخطين وتعهد للعلماء والمشايخ برفع الضرائب عن الناس وأمر جنوده باحترام الشعب ورفع الظلم عنهم وحمايتهم، وبذلك كسب محمد علي عطف الشعب وثقة زعمائه، وانتهز الفرصة وهاجم مراكز المماليك وحاصر بيوتهم فهربوا إلى الصعيد، فحدث فراغ سياسي للسلطة في القاهرة، فاقترح محمد علي إطلاق سراح خسرو باشا من السجن وتعيينه واليا، فارتفع مركز محمد علي لدى العلماء ولدى السلطان اذ ظهر بمظهر غير الطامع في الولاية، إلَّا أن اعادة خسرو للولاية لاقت اعتراضات كثيرة مما أدى إلى عدم توليته.

5. خورشيد باشا: اقترح محمد علي تعيين خورشيد باشا حاكم الإسكندرية بوصفه عثمانيا، وفعلا تم تعيينه، إلَّا أن خورشيد لم يكن ليطمئن لموقف محمد علي لذلك عمل على التخلص منه بأكثر من طريقة، منها استصدار فرمان (أمر) من السلطان العثماني بتعيين محمد علي واليًا على جدة، لكن محمد علي رفض تنفيذ ذلك مستندًا على تأييد العلماء والزعامة الشعبية.

تذمر الأهالي من مظالم خورشيد وأعمال جنوده، فاجتمع العلماء والزعماء والنقباء في بيت القاضي أو المحكمة في 13مايو 1805م، وقرروا عزل خورشيد وتولية محمد علي بشروطهم وهي أن يحكم بالعدل وألَّا يبرم أمرا الَّا بمشورتهم وإذا خالف ذلك عزلوه.

وكانت هي المرة الأولى في التاريخ المصري التي يعزل فيها والي ويولى أخر بإرادة شعبية، ولم يستطع السلطان العثماني أن يواجه هذه الإرادة القوية من المصريين فاضطر إلى إصدار فرمان بعزل خورشيد وتولية محمد علي في يوليه 1805م.

• محمد علي وتوطيد حكمه في مصر:

قبل أن يشرع محمد علي في بناء الدولة الحديثة في مصر، كان عليه أن يطمئن لاستقرار الحكم في يده خالصا من أعدائه في الخارج ممثلين في السلطان العثماني وفي الإنجليز، ومن منافسيه في الداخل ممثلين في الزعامة الشعبية وخاصةً عمر مكرم، والمماليك، وكانت كما يلي:

- في أغسطس 1805م حدثت محاولة انقلاب فاشلة من المماليك تصدت لها قوات محمد علي وطاردتهم إلى الصعيد.
- في 1806م أصدر السلطان العثماني فرمانًا بتوجيه إنجليزي

يقضي بنقل محمد علي إلى ولاية سالونيك وتسليم السلطة لموسى باشا القادم مع الأسطول العثماني، إلَّا أن الزعامة الشعبية ساندت محمد علي بقوة مما اضطر السلطان العثماني إلى التخلي عن فكرة نقل محمد علي مقابل دفع أربعة ألاف كيس من النقود.

- في 1807م وجهت انجلترا حملة عسكرية إلى مصر عرفت بحملة فريزر، وكانت الحملة تهدف إلى احتلال مصر وخلع محمد علي وتنصيب حليفها في مصر محمد بك الألفي، وقد نزلت الحملة إلى الإسكندرية ومنها إلى رشيد ووقع عبء المقاومة على المصريين والزعامة الشعبية الذين هزموا الإنجليز في شوارع رشيد وفي الحماد وأسروا بعضهم وقتلوا الكثير منهم وفر الباقون راجعين إلى الإسكندرية، أما محمد علي فكان يحارب المماليك في الصعيد فأسرع بالزحف إلى الإسكندرية وحاصرها، فطلب فريزر الصلح والجلاء مقابل الإفراج عن الأسرى، فوافق محمد علي ودخل الإسكندرية منتصرا، أما الألفي المملوكي تابع الإنجليز فكان قد مات قبل وصول حملة فريزر بشهرين ولم تعلم الحملة بخبر وفاته.

- في 1809م قام محمد علي بخلع السيد عمر مكرم من نقابة الأشراف ونفيه إلى دمياط وتولية محمد السادات مكانه والذي كان أداة طيعة في يد محمد علي، حيث كان محمد علي قد أدرك قوة الزعامة الشعبية ممثلة في السيد عمر مكرم نقيب الأشراف، ودورها في توليه الحكم والقيود التي فرضتها عليه، كذلك ارتفاع منزلته في نفوس الشعب وخاصة بعد دوره الواضح في رسم خطط مقاومة حملة فريزر.
- في مارس 1811م قرر محمد علي التخلص تمامًا من المماليك ليخلص له حكم مصر دون منافسة، وقد اتبع معهم سياسات مختلفة إلَّا أن أبشع طريقة كانت ما عرف بمذبحة القلعة 1811.

فعندما طلب السلطان من محمد علي التوجه إلى الحجاز لضرب الحركة الوهابية التي قامت هناك على يد محمد بن عبد الوهاب، خشي محمد علي أن ينتهز المماليك فرصة خروج جيشه وينقلبوا عليه، لذلك دبر لهم هذه المذبحة.

قام محمد علي بدعوة المماليك للاحتفال في القلعة بمناسبة خروج الجيش بقيادة ابنه طوسون إلى الحجاز، ثم حوصرت فرق المماليك من كل جانب وتم قتلهم جميعًا ماعدا عدد قليل منهم

كانوا في الصعيد ففروا إلى السودان وبذلك خلص حكم مصر لمحمد علي دون منازع وبدأ في بناء دولته الحديثة في مصر.

أهم أعمال محمد علي في بناء الدولة الحديثة:

• الاقتصاد:

طبق محمد علي سياسة الاحتكار على كل موارد الاقتصاد المصري ليضمن السيطرة على الاقتصاد ومنافسة الدول الأوروبية.

1. **الزراعة:** من أهم ما قام به في مجال الزراعة هو توزيع الأراضي على الفلاحين بمساحات تتراوح مابين ثلاث إلى خمس أفدنة لكل أسرة للانتفاع بها مع دفع الضرائب، وأحل أساليب زراعية جديدة وأدخل محاصيل وغلات جديدة وأصبح القطن المصري القطن الأول عالميًا، كما حسن طرق الري فشق ترعة المحمودية وأقام القناطر وأهمها القناطر الخيرية.
2. **الصناعة:** أقام محمد علي المصانع المختلفة مثل الغزل والنسيج والسكر والأسلحة وغيرها، وكانت هذه المصانع كلها تتبع الحكومة، كما استقدم خبراء من أوروبا، وجمع الصبية الصغار للعمل في مصانع الدولة اجباريًا بأجر رمزي فأصبحت بمثابة مدارس صناعية.

3. **التجارة:** خضعت التجارة لسياسة الاحتكار بعد أن خضعت لها الزراعة والصناعة، وبطبيعة الحال ولخدمة النشاط التجاري اهتم محمد علي بالنقل والمواصلات فقام بتمهيد الطرق البرية والبحرية وبناء أسطولين في البحرين الأحمر والمتوسط وإصلاح الموانئ القديمة وتطهير البحر الأحمر من القرصنة.

• التعليم والثقافة:

قام محمد علي بانشاء المدارس العليا مثل الحربية والطب والمهندسخانة، كما أقام المدارس الابتدائية والتجهيزية، وقام بإرسال بعثات علمية إلى أوروبا خاصة إلى فرنسا، كما استعان ببعض الأساتذة الأجانب للتدريس في المدارس العليا والترجمة من اللغات الأوروبية إلى اللغة العربية، وأقام كذلك المطابع الأميرية في بولاق لطباعة الكتب، كما أصدر صحيفة الوقائع المصرية.

• القوة العسكرية:

كانت جميع مشروعات محمد علي العمرانية والتعليمية بهدف سد حاجات الجيش، فقد أدرك محمد علي أن بناء جيش قوي هو الدعامة الأساسية لتحقيق أهدافه في بناء الدولة الحديثة، فقام

بإنشاء المدارس العسكرية وأهمها مدرسة في أسوان، واستقدم ضباطا من أوروبا للتدريس في هذه المدارس، كما قام محمد علي بتجنيد المصريين، وإقامة الترسانات البحرية وإنشاء الأسطول الحربي، كما اهتم كذلك بالتصنيع الحربي وإقامة القلاع والاستحكامات.

حروب محمد علي وتوسيع دولته:

خاض محمد علي مجموعة من الحروب مكنت مصر من تحقيق الاستقلال عن الدولة العثمانية، رغم أن هذه الحروب في بدايتها كانت لحساب السلطان العثماني، وانتهت بمواجهة السلطان نفسه، مما جعل الدول الأوروبية تدرك مدى قوة محمد علي وأنه أصبح يمثل خطرًا على التوازن الدولي، فتحالفت أوروبا مع السلطان العثماني حتى تم إخضاع محمد علي بفرض معاهدة لندن 1840م عليه.

وقد تمثلت أهم الحروب التي خاضها محمد علي في:

- **حروب الجزيرة العربية** 1811م – 1819م:

عرفت كذلك بالحروب الوهابية، وتمت بناء على طلب السلطان العثماني بهدف القضاء على دعوة محمد بن عبد الوهاب من آل سعود، وترتب عليها نجاح محمد علي في إسقاط الدولة السعودية

الأولى وأسند السلطان لمحمد علي مشيخة الحرم المكي ولابنه إبراهيم ولاية جدة، واتسع مجال مصر فشمل الحجاز ونجد وعسير وجزءًا من اليمن والخليج العربي.

• **حرب اليونان** 1821م – 1828م:

عرفت كذلك بحرب المورة، وتمت بناء على طلب السلطان العثماني للقضاء على ثورة اليونانيين ومطالبتهم بالاستقلال عن الدولة العثمانية، ورغم تحطم أسطول محمد علي في معركة نوارين أو نفارين، إلَّا أن النتائج النهائية للحرب كانت في صالح محمد علي لبناء القوة الذاتية لمصر ومنها ضم جزيرة كريت لولاية مصر، وارتفاع مكانة مصر دوليًا حيث تفاوضت الدول الأوروبية مع محمد علي مباشرة للتوصل إلى إتفاقية لإنهاء الحرب عام 1828م.

• **حرب السودان** 1820م – 1822م:

تعتبر أول الحروب التي خاضها محمد علي بناء على رغبته الشخصية وإرادتــه، وارتبطت بفكرة المجال الحيوي لمصر والامتداد الطبيعي لها من ناحية الجنوب، وهدف من ورائها إلى القضاء على المماليك الفارين من مذبحة القلعة واكتشاف مناجم الذهب والماس وتنمية التجارة وتجنيد السودانيين في الجيش،

وترتب على هذا الفتح تقسيم السودان إلى مديريات على النمط المصري وبناء مدن جديدة مثل الخرطوم وكسلا واكتشاف منابع النيل وأواسط أفريقيا.

• **حروب الشام** 1831م – 1839م:

تطلع محمد علي لضم الشام وحاول نيلها بالسياسة من السلطان أكثر من مرة إلَّا أن محاولاته السياسية كلها لم تنجح وفي 1831م وجد محمد علي الحجة التي سيدخل بها إلى الشام، فقد أعلن رغبته في إرجاع الفلاحين المصريين الهاربين إلى الشام تخلصًا من الضرائب وفرارًا من الخدمة العسكرية، وقد بلغ عددهم نحو ستة ألاف، وقد رفض والي عكا إرجاع هؤلاء الفارين بإعتبار أنهم رعايا عثمانيون يحق لهم الاستقرار في أي مكان يتبع الدولة العثمانية لذلك قرر محمد علي التوسع في الأراضي الشامية.

بالفعل في أكتوبر 1831م تقدمت القوات المصرية في الشام وحققت انتصارات متتالية فدخلت عكا ودمشق وحمص بل وتخطت الحدود الشمالية لسوريا ودخلت الأناضول وتمركزت في أدنة وواصلت الزحف نحو الآستانة عاصمة الدولة العثمانية.

وانتهى هذا الأمر بعقد صلح كوتاهية 1833م وبه بسط محمد علي نفوذه على الشام وأدنة وتأكد سلطانه على كريت ومعظم شبه الجزيرة العربية والحجاز فضلًا عن مصر.

وفي عام 1838م جدد محمد علي عزمه على الاستقلال عن الدولة العثمانية، إلَّا أن انتصارات محمد علي وتهديده للسلطان آثارت مخاوف الدول الأوروبية من ازدياد نفوذه وقوته وخطره على التوازن الدولي، ولم تكن الدول الأوروبية لتسمح بتفوق مصر، فدخلت الدول الأوروبية في مفاوضات مع السلطان العثماني وانتهت هذه المفاوضات بعقد معاهدة لندن 1840م والتي عرفت باسم تسوية لندن،**وكانت أهم شروط هذه التسوية هي:**

1. اعطاء محمد علي وخلفائه حكم مصر وراثيًا ولمحمد علي فقط حكم فلسطين طوال حياته مع إخلاء كريت وأدنة والحجاز
2. أن يدفع محمد علي جزية سنوية للسلطان
3. أن يلتزم محمد علي بتطبيق كافة المعاهدات التي عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية
4. تعد قوات محمد علي البرية والبحرية جزءًا من قوات الدولة العثمانية وأن تكون في خدمة السلطان.

أمـام هذا التحالف الأوروبـي العثماني لم يستطع محمد علي المقاومة واضطر إلى قبول هـذه التسوية، واستكمالًا لهذه المعاهدة أصدر السلطان فرمانين في عام 1841م ربطا مصر بقيود جديدة منها:

- يتلقى حكام مصر من أبناء محمد علي فرمان الولاية من السلطان.
- لا يزيد عدد الجيش في وقت السلم على ثمانية عشر ألف جندي ولا تبني مصر سفنًا حربية إلَّا باذن السلطان إلَّا أن الفرمان الأول قد قضى بحق وراثة حكم مصر لأكبر أبناء محمد علي سنا من الذكور،وقضى الثاني بولاية محمد علي على السودان.

على أي حال، وبعد انسحاب الجنود المصرية من بلاد الشام وفصل الأخيرة عن مصر وعودتها لربوع الدولة العثمانية بدعم أوروبي كبير، أصيب محمد علي باشا بحالة من جنون الارتياب، وغدا مشوش التفكير شيئًا فشيئًا، ويُعاني من صعوبة في التذكّر، ومن غير المؤكد إن كان هذا نتيجة جهده الذهني خلال حرب الشام، أو حالة طبيعية نتيجة تقدمه بالسن.

بعد عام من هذه الحادثة، أصيب إبراهيم باشا بن محمد علي بالسل،

واشتد عليه داء المفاصل، وأخذ يبصق دمًا عند السعال، فزاد ذلك من هموم محمد علي وحزنه، فأرسل ولده إلى إيطاليا للعلاج، على الرغم من أنه أدرك في قرارة نفسه أن ولده في عداد الأموات، ويتضح ذلك جليًا مما قاله للسلطان عندما زار الآستانة في سنة 1846م، حيث عبّر عن خوفه من ضياع إنجازاته بسبب عدم كفاءة أحفاده لتحمّل مسؤولية البلاد والعباد، فقال:

" **ولدي عجوزٌ عليل، وعبّاس متراخ كسول، من عساه يحكم مصر الآن سوى الأولاد، وكيف لهؤلاء أن يحفظوها**»

بعد ذلك عاد محمد علي إلى مصر وبقي واليًا عليها حتى اشتدت عليه الشيخوخة، وبحلول عام 1848م كان قد أصيب بالخرف وأصبح توليه عرش الدولة أمرًا مستحيلاً، فعزله أبناؤه وتولّى إبراهيم باشا إدارة الدولة.

حكم إبراهيم باشا مصر طيلة ستة أشهر فقط، قبل أن يتمكن منه المرض وتوافيه المنيّة في نوفمبر سنة 1848م، فخلفه ابن أخيه طوسون، عبّاس حلمي. وبحلول هذا الوقت كان محمد علي باشا يُعاني من المرض أيضًا، وكان قد بلغ من الخرف حدًا لا

يمكنه أن يستوعب خبر وفاة ابنه إبراهيم، فلم يُبلّغ بذلك. عاش محمد علي بضعة شهور بعد وفاة ولده، وتوفي في قصر رأس التين بالإسكندرية بتاريخ 2 أغسطس سنة1849م، فنُقل جثمانه إلى القاهرة حيث دُفن في الجامع الذي كان قد بناه قبل زمن في قلعة القاهرة.